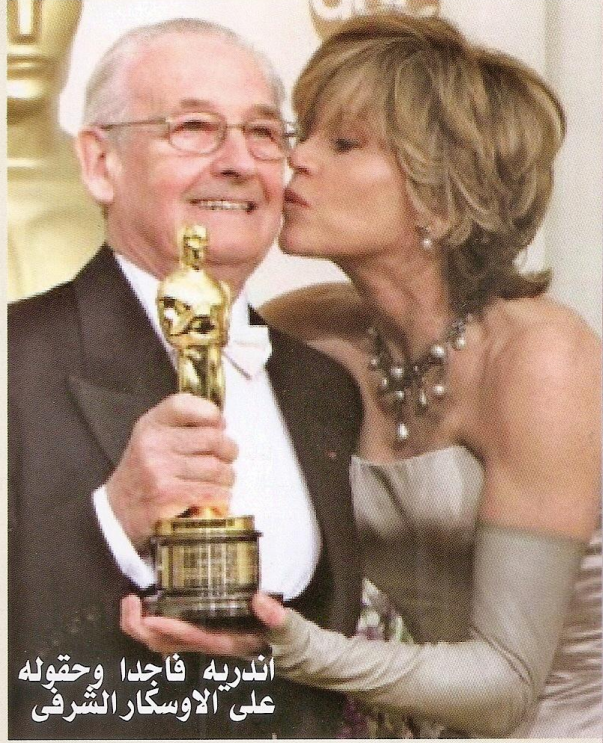




مذبحة كاتين في عيون أندريه فاجدا

الحرب العالمية الثانية ، وحرب أمريكا مع كوريا في الخمسينيات من القرن الماضي ، وحرب فيتنام ، وحرب العراق — أن تشير إلى أن أول فيلم ناطق يحصل على جائزة أوسكار أحسن فيلم عام ١٩٣٠ كان عن الحرب العالمية الأولى ، وهو فيلم (All Quiet on the Western Front) أو "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية" ، وهو من إخراج "لويس مايلستون" (Lewis Milestone). أما آخر فيلم يحصل على هذه الجائزة هذا العام فهو عن الحرب أيضاً ، وهي هنا حرب العراق ، وهو باسم (The Hurt Locker) أو "خزانة الألم" ، الذي سجل سابقة في تاريخ جوائز الأوسكار بحصول أول امرأة على جائزة أحسن إخراج ، وهي الأمريكية "كاثرين بيجالو".

إن كل إنسان عاشق للسينما يعلم أن جزءاً كبيراً منها هو صناعة وتسليية . نعم ، فهي مجال تجاري واسع يهدف لربح المال والسعي وراء المزيد منه . ولكن المتعمق أكثر في هذا الفن الجميل — الفن السابع — يدرك أن السينما تعتبر صالوناً ثقافياً لا حدود له ، مثل الفضاء الممتد اللانهائي . فالفن السابع يجمع في داخله كل ما سبقه من فنون ، كالمرسح ، والأدب ، والرسم ، والتصوير ، والمعمار ، والموسيقى . ومن هنا ، فالسينما غذاء ثقافي لا غنى عنه لمعرفة تاريخ وتجارب الأمم والشعوب والتعرف على الإبداع الإنساني في الأدب والفكر والموسيقى وما إلى ذلك .

إعداد : شريف حمدي ولأن السينما تسجل أحياناً كثيرة الأحداث التاريخية وتربطها بالواقع — سواء من وجهة نظر مخرج العمل أو مجموعة كتاب السيناريو أو العمل الأدبي المأخوذ عنه الفيلم — فالملاحظ أن السينما العالمية قد اهتمت بتجسيد أهم حدث تاريخي في رأيي جرت وقائعها في القرن العشرين وذلك في العديد من الأفلام ، وأقصد بذلك الحرب العالمية الثانية ووقائعها التي استمرت ست سنوات . فقد بدأت تلك الحرب في أول سبتمبر من عام ١٩٣٩ بغزو ألمانيا لدولة بولندا ، وانتهت في يونيو من عام ١٩٤٥ بعد أن ألقت القوات الأمريكية القنبلة النووية على مدينة هيروشيما اليابانية. ومن الطريف ونحن نذكر أهمية الأفلام المتعلقة بالحروب عموماً — سواء الحرب العالمية الأولى أو

أعلنت أن الجنود الألمان هم الأيدي الخفية وراء تلك المجازر ، بينما كان الألمان يؤكدون أنها من فعل الروس . وظلت الحرب الكلامية مستمرة بين الطرفين إلى أن أصدرت لجنة بالكونجرس الأمريكي تقريراً يعلن أن الإتحاد السوفييتي هو المسؤول الأول عن مجازر كاتين . وانتهى الشك تماماً في عام ١٩٩٠ عندما أعلن الإتحاد السوفييتي مسؤوليته ، مبرراً ما حدث بأنه كان من تنفيذ البوليس السياسي الروسي المعروف باسم "NKVD".

وفي العام الحالي ٢٠١٠ ، يكون قد مر ٧٠ عاماً على وقائع تلك المجازر البشعة —وقد كانت الذكرى بالتحديد يوم ٨ إبريل . ومن مفارقات القدر أن الرئيس البولندي "ليخ كاتشينسكي" وزوجته ومجموعة من أبرز رجال الدولة وأعضاء الحكومة البولندية ، بالإضافة إلى مجموعة من أهالي الضحايا ، كانوا متوجهين إلى "كاتين" على متن طائرة روسية الصنع لإحياء هذه الذكرى ، فإذا بالطائرة تتحطم ويموت جميع ركابها وطاقمها ، في مأساة أعادت للأذهان تلك الأحداث الدامية ، وكأن لعنة "كاتين" ما زالت مستمرة ، تحصد أرواح المزيد من ضحاياها ، رغم مرور ٧٠ عاماً ! من هنا كانت الأهمية الكبرى لفيلمنا هذا اليوم — فيلم "مذبحة كاتين".

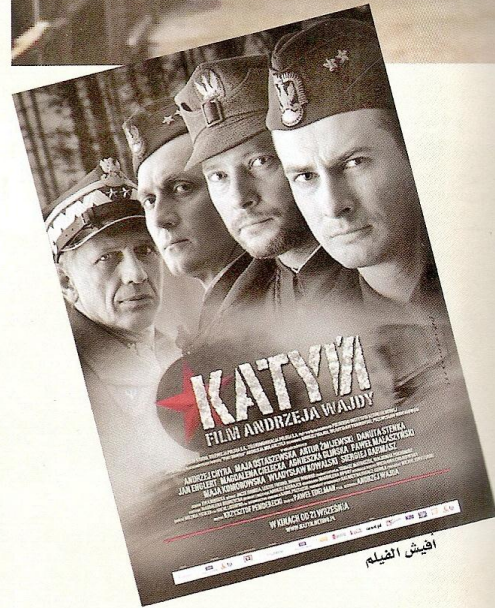
في البداية ، وأنا أشاهد الفيلم ، أحسست أن المخرج "أندرية فاجدا" كان مهتماً بدرجة أكبر بتسجيل تأثير الحرب العالمية عموماً على الشعب البولندي بجميع فئاته . فالفيلم ينقسم إلى أقصوصات قصيرة عن شخصيات مختلفة ، من أجل أن نتعرف نحن المشاهدون على آثار الحرب عليهم . فليس هناك ممثل أوجد نتعاطف معه ، بل مجموعة من الشخصيات الصغيرة ، نعيش أحداث الفيلم معها للحظات لننتعرف من خلالها على الجوانب الشنيعة للحرب . وهو ما يسمى في لغة السيناريو بـ "Ensemble Piece" أو "البطولة الجماعية".

ويبدأ الفيلم بمشهد خلاب على خلفية

والغريب أنني كنت ذاهباً لحضور فيلم آخر عن حياة العبقريّة الموسيقية البولندية "فريدريك شوبان" ، ولكنني فوجئت بالتغيير عند دخولي قاعة العرض ، وكنت قبلها بدقائق أناقش الفيلم الآخر مع أحد أصدقائي ، معبراً عن اشتياقي لرؤيته ، فإذا بالفيلم يعرض أمامي ... وبها لها من صدفة !

وفيلمنا اليوم هو الفيلم البولندي الرائع ، المثير والمأساوي ، وهو بعنوان "كاتين" (Katyn) أو "مذبحة كاتين" الذي أنتج عام ٢٠٠٧ . وهو من إخراج أشهر وأعظم مخرجي بولندا ، وهو المخرج الكبير "أندرية فاجدا" (Andrzej Wajda) الذي حصل من قبل على جائزة السعفة الذهبية في مهرجان كان عام ١٩٨١ عن فيلمه "رجل من حديد" (Man of Iron) ، ورشح لنفسه الجائزة مرات أخرى . وفيلم مذبحة كاتين كان قد رُشح لجائزة أحسن فيلم أجنبي في أوسكار عام ٢٠٠٨ . والأحداث التاريخية لهذه المذبحة البشعة تعود إلى سبعين سنة مضت . فقد حدثت أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد في إبريل ١٩٤٠ . وكانت القوات السوفييتية قد اعتقلت ما يقرب من ٢٢ ألفاً من كبار قادة وضباط الجيش ، بالإضافة إلى فئات هامة من رجال الطب والقضاء والتعليم في بولندا . واستمر الاعتقال بضعة شهور من سبتمبر ١٩٣٩ وحتى إبريل ١٩٤٠ ، حيث قرر القادة الروس إعدام جميع المعتقلين في ثلاث مقابر جماعية في مدن "كاتين" و"كالينين" و"خاركيف".

وظلت هذه المقابر سرا دفيناً لا يعلمه أحد ، حتى قامت القوات الألمانية بغزو روسيا عام ١٩٤٢ واكتشفت بالصدفة المقبرة الجماعية في كاتين . ولهذا التصق اسم المجازر الثلاثة باسم أول مكان اكتشفت فيه . وهنا بدأت بعض الحقائق تتكشف لأسر الضحايا ، حيث أعلنت بولندا عن حقها في معرفة ماذا جرى . وكعادة أي مجرم حرب يحاول الهروب من فعلته والقاء اللوم على الآخر ، أُلقت روسيا بالاتهام على ألمانيا ، حيث



أفيش الفيلم

(Kathryn Bigalow)

وبعد ، فقد كان حظي كبيراً خلال حضوري مهرجان الفيلم الأوروبي الذي أقيم في إبريل من هذا العام في بعض المراكز الثقافية بالقاهرة ، حيث شاهدت أحد الأفلام البولندية المهمة عن الحرب العالمية الثانية .



مشهد للضباط في العمل



زوجة أحد الضباط

الرهيب الذي سوف يعيش فيه البولنديون طوال سنوات الحرب . وما أبشع أن تكون حراً طليقاً تحت السماء ، ولكنك في الحقيقة سجين بلا قضبان !

ولعل من براعة الأحداث أن الفيلم لم يظهر لك مشاهد المجزرة في البداية ، بل تركها إلى آخر مشهد ليظل وقع الصدمة علينا مستمراً إلى ما بعد ظهور الأسماء . فبعد مشهد الافتتاح ، نرى المعتقلين البولنديين في سجون مختلفة . إنهم يعتقدون أنهم أسرى حرب ، لكنهم لا يعلمون المصير الذي ينتظرهم . وعلى الجانب الآخر ، نتعاطف مع بعض أهالي الأسرى من خلال ثلاث شخصيات نسائية حاك كتاب السيناريو نسيجها بروعة . وقد ساهم أندريه فاجدا أيضاً في كتابة سيناريو الفيلم .

ومن هذه الشخصيات ، هناك شخصية زوجة أحد الأسرى التي تهرب من العاصمة "وارسو" لتعيش مع حمايتها ، فتكتشف أن حماها الأستاذ الجامعي قد تم أسره أيضاً . وهذه زوجة أخرى لضابط كبير ، تنتمي إلى الطبقة العليا ذات المكانة والجاه ، ولكنها تعيش في رعب مع ابنتها . وسوف نرى كيف أن الفقر سوف يحيط بتلك الأسر بعد دخول



الامل

الموسيقى حزينة ، يلخص ما سوف تؤول إليه بولندا خلال الحرب . فنرى جسراً ممتداً على نهر ، وعلى أحد جانبيه أفواج غفيرة من مختلف الفئات الطبقيّة البولندية تنطلق هاربة من جحافل الألمان الذين غزوا أرضهم . وتفاجأ هذه الأفواج بقلوب أخرى تهولوا ناحيتهم من الجانب المقابل للجسر في الاتجاه المعاكس وهي تصرخ "ماذا تفعلون ، إرجعوا ، فإن الروس قادمون من الجهة الأخرى" . فيا إلهي ! ماذا يفعل هؤلاء الهاربون بعد أن أصبحوا سجناء في العراء؟! فعن اليمين السجن الروسي ، وعن اليسار القتل والترويع الألماني ! فكان هذا المشهد الافتتاحي تعبيراً عن السجن

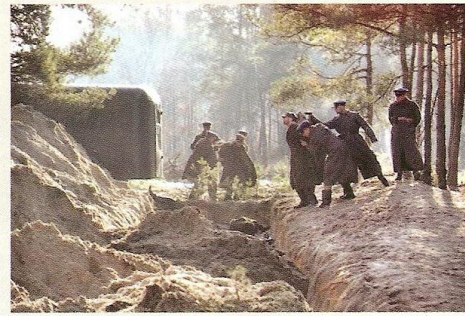
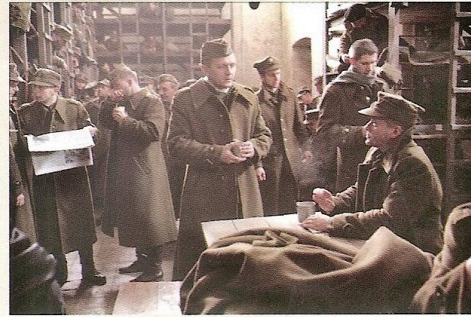
جنديين روسيين ، فتساعده فتاة خارجة لتوها من المدرسة على الاختباء . واثناء الاختباء يقبل الشاب الفتاة ويتسم قائلًا " يجب أن أراك غداً ونذهب إلى السينما " . فتبتسم الفتاة مرددة أن هذا سوف يسعدها . وهكذا ثبتت بالصدفة بذرة حب . وفجأة يخرج الشاب من المخبأ ليقتل ، وكان شخصاً لا نراه ولا نسمعه يصرخ أمام هذا المشهد قائلًا " لا مكان للحب في تلك الظروف " !

وأخيراً — وكما أشرت سابقاً — فإن " فاجدا " إدخر مشاهد المجازر إلى أواخر الفيلم ولم يظهرها في البداية ، رغم أن الأحداث تبدأ بها تاريخياً . ولعل هذا ما يميز بعض المخرجين والأفلام عن سواهم ، وأقصد هنا كيفية عرض القصة وكيفية تحليلها بحيث تترك الأثر المطلوب على المتلقي . فلو كنا شاهدنا ما حدث في بداية الفيلم ، ما كان نفس التأثير ليحدث مثلاً كان تأثرنا عند مشاهدة المذبحة في ختام الأحداث . وقد تم تنفيذ الإعدام للاثنتين وعشرين ألفاً بنفس الطريقة والصورة على يد الجيش البوليسي الروسي ، ولكنه تم على طريقة الجستابو الألماني ، وهي " رصاصة في مؤخرة الرأس " . ولن أخوض في رؤية المخرج حول تفاصيل وكيفية إتمام المجزرة ، وسأتركها لك عزيزي القارئ لكي تتأملها بعينيك .

وختاماً ، فالسينما جزء كبير منها تجسيد للواقع ، ومحاولة لعرض التجارب والأخطاء الإنسانية بهدف دراستها وتحليلها واستخلاص الدروس والعبر منها ، والتعلم من تلك الأخطاء . ويكفي أن أقول أنه قبل بداية عرض الفيلم ، طلب من المنظمين البولنديين الوقوف دقيقة حدادا على ضحايا الطائرة الرئاسية المنكوبة ، وبعد مشاهدتي للفيلم تفهممت تماماً مغزى ذلك ، وعدت لأقرأ المزيد عن " كاتين " . وهكذا ، علمتني السينما جزءاً من التاريخ كنت أجهله تماماً .



اندرية فاجدا



تنفيذ عملية المجزرة

تلك التي تعكس معنى الخوف من الحب وقت الحرب ، وكان الحب يخاف أن يزدهر أثناء الحرب . ففي مشاهد رومانسية مرتبطة بالخوف ، يهرب شاب قتل أباه في كاتين من



الحكم الشيوعي إلى تلك المنطقة ، وكيف أن أمل هؤلاء النساء ظل قائماً في أن أزواجهن ما زالوا أحياء وسيعودون ، إلى أن يعلمن بالحقيقة المرة عن تلك المجازر . وأخيراً ، فهناك شخصية الفتاة الشابة التي تؤمن أيضاً بأن أحباها لم يميت وسوف يعود .

ولهذا فإن التعاطف مع قضية الفيلم جاء من تعاطفنا نحن المشاهدين مع تلك الشخصيات النسائية وما مر بهن من معاناة ومحن .

وقد أدخل " اندريه فاجدا " بعض الملامح والتلميحات السياسية والإنسانية على هذه الشخصيات ، وكأنه يريد نقل رسالة — من وجهة نظره — مؤداها أن الخوف في ظل تلك الظروف يولد انعدام الأمل . فمثلاً عندما حاولت الفتاة الشابة أن تعلق على جدران الكنيسة لوحاً عليه صورة أخيها لتثبت استشهادها في كاتين ، رفض القسيس ذلك ، قائلًا لها ما معناه أن الحقيقة يجب أن تظل مدفونة ، وكان " الدين " هنا أيضاً خائف على نفسه من قسوة ويطش الروس . وعندما حاولت هي وضع هذا اللوح على مقبرة أسرته ، تم اعتقالها . ومن المشاهد المعبرة أيضاً في الفيلم